دراسة نقدية لغستوغرافية ومصادر: بداية العمران .بايلك الغرب الجزائري وجنوبه

أ.د/ ابراهيم مهديد
جامعة وهران 1- احمد بن بلة

مقدمة:

داخل هذا الإطار الجغرافي للقطاع الوهراني وجنوبه بمساحاته الشاسعة وبسهوله وجباله وسهوبه وأوديته وصحرائه،فإن الدراسة تفرض المقاربة التاريخية الأساسية للعمران والتعمير بالنسبة لربوعه المتنوعة والمتعلقة بسكان المنطقة بقبائلها وبطونها وعروشها وأسرها مع مدنه وقراه وقصوره عبر العصور [1].

-اشكالية تكون العمران وتوزيعه الحضاري جغرافيا

إن مختلف الآراء لدى المؤرخين والباحثين أفرزت لنا مدى صعوبة الخروج باشكالية حول تكون الشعب البربري وهي مسألة ظلت عويصة في تاريخ شما إفريقيا فقد تراكمت مجموعة معتبرة من النظريات عبر العصور كانت موضوع تضارب في الرأي[2]. فعادة مايطلق إسم "بربر" على السكان الأصلين بالنسبة لهذه المنطقة.وقد ظهرت هذه الكلمة في نص المؤرخ هيرودوت خلال القرن الخامس قبل الميلاد «حيث يؤكد أن المصريين يطلقون اسم بربري على الذين لايتكلمون لغتهم. غير أنه في عصر الرومان وانطلاقا من القرن الأول بدأ تعميم استعمال الكلمة.فبربري، الكلمة الرومانية تطلق على القبائل الجنوبية المتمردة والتي كانت تهاجم الحدود الرومانية»[3] إلا أن هيرودوت نفسه كان يسمى هذه الأرض باسم لوبيا أو ليبا ويدعوا أهلها بالوبيين والليبيين وهم سكان الشمال الإفريقي في حدود واحة "سيوة" المتاخمة لبلاد مصر شرقا إلى ساحل بحر المحيط الأطلسي غربا وإلى ضفة وادي النيجر جنوبا.

يذكر المؤرخ الروماني سالوست (saluste) الذي عاش في القرن الأول الميلادي، أن الجيتوليين والليبيين هم السكان الأوائل لإفريقيا، والممتد من تونس إلى المغرب الأقصى و«بعد ذلك ظهرت مجموعة النوميدين والموريين، حيث أصبحت الكلمة القديمة جيتول- قودالة باللغة العربية- تخص شعوب الهضاب العليا وحافة الصحراء... وتمتد بعيدا نحو الجنوب؛-حيث- وادي قير، أطول الوديان في إفريقيا الشمالية (حوالي 550كلم)؛ يجري من الجنوب إلى الجنوب الشرقي يستقبل وادي

الناموس ثم وادي الساورة ويتجه نحو توات» [4]؛ على أن الموجات السكانية وهجرات القبائل البربرية من الجيتول –فيزون،واسين- نحو الشمال حدتها وافقتها الظروف السياسية والعسكرية خلال الفترة الرومانية (40 م-429م) التي عرفت كلا من الكيانيين السياسيين المتمثليين في موريطانيا القيصرية وعاصمتها شرشال وموريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة؛ الأمر الذي جعل هذه القبائل تمكث في الجنوب وتواصل حياة الرحل في الجنوب الوهراني والأطلس الصحراوي والواحات حيث استطاعت على مر السنين بالاستلاء على هذا الريف الواسع وضيعاته و«التي تحولت فيما بعد إلى القصور التي نعرفها (بوسمغون،أربا،عسلة،تيوت،عين الصفراء،صفيصفة الخ... ابذي أطلق عليهم-المؤرخ-بلين (pline) إسم الإثيوبيين» [5].

ورجوعا إلى الإشكالية التي تتناول مختلف الطروحات حول تكون القبائل البربرية وتوزيعها الجغرافي على مناطق بلاد "المغارب"، فإن "الاتفاق" يصل إلى أن أصل نشأتهم فهم ساميون من أبناء مازيغ بن كنعان.فهم "الأمازيغ" كما جاء في تصريحهم أمام الخليفة عمر بن الخطاب (-) حينما توجه إليه وفد منهم بعد فتح مصر،« فانتسبوا أمامه إلى مازيغ، وأنهم أصحاب البلاد الواقعة بين خليج العرب "البحر الأحمر" والبحر المحيط ولم يقولوا أنهم "بربر"» [6]. ولقد حاول بعض المؤرخين أن يلحقوا نسبهم ببر بن قيس بن عيلان ،فإن صح ذلك فهو من باب الاتفاق كما يشير إلى ذلك عبد الرحمن بن خلدون [7]؛ إنتقلت الجاليات الكنعانية هاته من آسيا، جنوب فلسطين إلى إفريقيا عن طريق مصر حواي سنة 1300 قبل الميلاد وتابعت سيرها إلى هذا الوطن الجديد في فترات مختلفة ودفعات متفرقة.

تجتمع الفروع البربرية العديدة والتي انتشرت في "بلاد المغارب" إي شمال إفريقيا- في إسمين رئيسيين وهما "مادغيس الملقب بالأبتر، والمنتسبون إليه هم "البتر"، وقسم ينتسب إلى برنس بن بر،فسموا "بالبرانس" [8] وكل من مادغيس وبرنس أخوان لأب واحد هو برنم ولد مازيغ إبن كنعان. ولقد تفرع عن الأول عشر قبائل كبيرة منها ثلاث سكنت المغرب الأوسط وهي كتامة وعجيسة وازادجة؛أما قبيلة صنهاجة فيوجد منها قسم بالجزائر والمغرب الأقصى؛ وبالنسبة لما دغيس الأبتر فتجتمع فروعه في أربع قبائل كبرى ومنها لواتة وضريسة التي سكنت الجزائر أيضا.

وبالنسبة لقبيلة لواتة تتميز بكثرة تفرعاتها واستقرارها بجبل أوراس ونواحي تيارت وبجاية ومن بطونها إثنان" زناتة" و"زواوة".فزناتة هي أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا وهي منتشرة بالقطاع الوهراني في نواحي تلمسان وريغة والأغواط والزاب.

يفيدنا عبد الرحمن ابن خلدون عندما يتناول قبائل المغرب الأوسط فيجمل « وأما المغرب الأوسط في الأغلب ديار زناتة.. حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم،فيقال وطن زناتة،كان لمغراوة وبني يفرن وكان معهم مديونة ومغيلة وكومية ومطغرة ومطماطة. ثم صار من بعدهم لبني ومانو وبني يلومى. ثم صار لبني عبد الواد وتوجين من بني مادين،وقاعدته لهذا العهد- القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي-: تلمسان، وهي دار ملكه ويجاوره من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومتيجة والمدية ومايليها إلى بجاية، وقبائله كلهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة... وأما بلاد بجاية وقسنطينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة وهي اليوم ديار للعرب إلا ممتنع الجبال وفيها بقاياهم» [9].

فمن الناحية المنهجية والجانب النقدي لمصادر و"هيستوغرافية"هذه المواضيع[10] المتعلقة بالقبائل والتوزيع الجغرافي والعمراني لها.فإن مصدر عبد الرحمن البن خلدون وابن الرقيق القيرواني (5هـ-11م) مع شهاب الدين أحمد النويري المتوفي عام 733هـ وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي (886هـ-1481م).فإنها تؤدي الغرض كمصادر مجتمعة تكمل كل منها الأخرى خصوصا وأن القبائل العربية- كما سنعالج- نجحت في إنشاء إمارات مستقلة أثرت وتأثرت بما حولها؛فكتاب شهاب الدين أحمد النويري مثلا-"نهاية الارب في فنون الأدب" يحتوي على بعض بطون القبائل التي لم ترد بمؤلفات عبد الرحمن بن خلدون وأفاد الكتاب بصفة عامة في ترجيح بعض أسماء القبائل العربية التي أوردها ابن خلدون ومختلف علها.

وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر لعبد الرحمن بن خلدون (732-808هـ/332-1406م) طبع بمصر في بولاق سنة 1867م في سبعة أجزاء، والجزء الأول منه هو المقدمة المشهورة التي ينظر فيها للتاريخ على انه فرع من الحكمة أي الفلسفة وفي نفس الوقت تتضمن نظرية ابن خلدون حول القبائل العربية ودورها السلبي في المناطق التي انتقلت إليها خصوصا المغرب كما انها تحتوي على معلومات هامة عن دور العرب

الحضاري في المغرب والأندلس وأنظمة الحكم فيها لاحقا وعن حياة هذه القبائل الاجتماعية ومعتقداتها وطريقة حياتها وأسلوب حربها.

أما بقية أجزاء التاريخ فهي تتناول أخبار العرب وأجيالهم منذ بدأ الخليقة إلى عصره ثم أخبار البربر وأجيالهم ودولهم بديار المغرب. وأهم هذه الأجزاء الجزءان السادس والسابع حيث يتناول فيهما ابن خلدون انتقال القبائل العربية من بالد العرب إلى بلاد المغرب وتوزيعها على البالد وأماكن استقرارها وأنسابها وقبائلها وبطونها ولا يمكن لباحث أن يتناول دور القبائل العربية ببلاد المغرب دون الاعتماد على ماكتبه ابن خلدون في هذا المضمار خصوصا وأنه اعتمد على كثير من المصادر غير الموجودة في العصر الحالي وكذا مااستقاه من زعماء القبائل العربية أنفسهم.

كما يمدنا ابن خلدون بالمادة اللازمة لتوضيح دور القبائل العربية في العلاقات بين دول بلاد المغرب الموحدين ومن بعدهم الحفصين مع دولة بني مرين وبني عبد الواد ومن خالفهم من القبائل العربية.

وفي مرحلة لاحقة وخلال القرن 16 يقدم كل من الجغرافيين "الحسن الوزان" ومارمول معطيات إضافية بالنسبة للفترة الطويلة التي أتت بعد ابن خلدون عن القبائل البربرية-والعربية-وذلك باعتمادها على مؤلفات الانساب والسلالات من المؤرخين المسلمين كابن الرقيق القرواني مثلا واستعماها أسلوب الملاحظة بمعايشة التطورات التي تحصل هنا وهناك بالنسبة لهذه القبائل؛ فكلاهما يؤكد ان في طرحهما وحسباتهما عن ديمغرافية سكان البربر والعرب الوافدين إلى بلاد المغرب، فيظهر من خلالها الموافقة على ماحلله ابن خلدون عن بطون البربر،مشيرين إلى توسعها الذي بلغ 600 قبيلة [11] ومركزين على ديمومة واستمرار أعظمها حتى منتصف القرن السادس عشر؛ وهي قبيلة **صنهاجة ومصمودة وغمارة وهوارة وزناتة** .وبالنسبة لهذه الأخيرة-والتي قمنا في إطار هذا البحث-فإن انتشارها شمل كل بلاد إفريقيا،منها جزء استوطن مقاطعة "تامنسا" والممتدة جنوب غرب مدينة فاس وطول شواطئ المحيط وهم "الشاوية"؛ في حين أن أقسام أخرى استمرت بالبقاء داخل الجبال الفاصلة بين إمارتي فاس وتلمسان؛ أي بني مرين وبني زيان.

فالبنسبة لمؤرخي وجغرافي الفترة الممتدة فمابين القرن 11م والقرن 16 م كالشريف الإدريسي أبو عبد الله محمد (548هـ-1154م) وياقوت الحموي (626هـ-1299م) وشهاب الدين بن فضل الله العمرى(742هـ-1341م) وعبد الرحمن بن خلدون (1406م) وأبي زكريا بن خلدون (1378م) وغيرهم فإن القبائل البربرية

الخمس هي التي صقلت تاريخ بلاد المغرب بماعرفته من تطورات بتأسيس الامارات السياسية المختلفة؛ ومع ظهور الصراعات والاضطرابات والانقلابات العديدة؛ أفضت هذه الظروف كلها إلى بروز وتكون الدول الحديثة في بلاد المغرب لاحقا.

الهوامش والحواش

1- Lasser(j.Marie), ubique populus peuplement et Mouvement de population dans l'Afrique romaine,C.N.R.S paris 1977.

2- قارن،ستيفان قزيل، إيميل فيليكس غوتي، شارل أندري جوليان وايفر (ج) ومارسي (ج) Gsell (stephane), histoire ancienne de l'afrique du nord(tome6),Ed Hachette, Paris 1913, Gauthier (E. f) ,Le Passé du l'Afrique de nord ,Poyob1952,Julien (Ch.A),histoire de l'Afrique du nord des origines a la Conquete arabe,tome1, Paris 1951,(reédition 1969) &(Gsell(st),Marcais(g) et Yever(g) :Histoire de l'Algérie ,1927 .

هذا المرجع لا يزال من أحسن المؤلفات التي تعالج تاريخ الجزائر في شموليته وكان للقسم الذي يتعلق منه بالعصور القدمة قد نشر قبل ذلك في سنة 1913 تحت عنوان:

« l'Algérie dans l'Antiquité»

3- بن عمارة خليفة، تاريخ الجنوب الغربي الجزائري الاعلى (العين الصفراء، المشرية، البيض، النعامة) من الأصول إلى غاية اندلاع حرب التحرير، طبعة دار القدس العربي، وهران، 2016، ص 26.

4- بن عمارة خليفة، تاريخ الجنوب الغربي الجزائري،... ص 27.

5- بن عمارة (خ)، نفس المرجع ، صص 32-33.

6- الجيلالي عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1402هـ-1982م، ص 36.

7-ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر، طبعة مصر، 1936، الجزء الاول، ص18.

8- تشير بعض الدراسات عن اشتيقاق أصل تسمية البرانس والبتر أنهما كلمتان يونانيتان ، فالأولى أصلها (بارانوس) ومعناها الحضر وهو سكان سواحل شمال افريقيا، أما الثانية فأصلها 'بوتروس" ومعناها الرعاة وهم اهل البادية أصحاب المواشي والرحل.

9- ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر...، الجزء 6، ص102

10-يتمكن الباحث من الالمام عن التطور التاريخي البشري والاجتماعي لما نحن بصدد معالجته بالنسبة للمغرب الأوسط-الجزائر-بالتركيز على مصادر المؤرخين الأوائل **كابن عبد الحكم** أبو القاسم عبد الرحمن (276-889) «فتوح مصر والمغرب» نشره عبد المنعم عامر بالقاهرة 1961

والبكري عبد الله بن عبد العزيز المرسى487هـ-1094م«المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب»، نشره دي سلان بالجزائر،1911 **والادريسي** أبي عبد الله محمد الشريف السبتي (548هـ-1154م)،«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» **وياقوت الحموي** (626هـ-1229م)«معجب البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل الوعر في كل مكان» والحسن الوزان بن محمد الفاسي«وصف لإفريقيا» وعبد الرحمن بن خلدون أبو زيد بن محمد «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» و«مفاخر البربر» لمؤلف مجهول،نشره **ليفي بروفنسال** بالرباط1934 و«تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد تلمغرب» لمؤلف مجهول نشرها وأعادها يأسلوبه عمر أبو النصر ،بيروت1971،وابن **أبي دينار** محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني(المتوفى1698م)«تاريخ افريقا والمغرب» نشره الكعبي بتونس عام1968؛وغيرها من المصادر.

11-CARETTE(e)-Chef de Bataillon de Genie, membre et secrétaire de la commission scientifique d'Algérie –« Recherche sur l'origine et le migrations des principale, tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie» , tome 3,1849.(collection fonds Augustin Bernard, université de Paris, tuslilut de géographie , cote Ab II).